الحمار .. أيقونة البشرية

محمد كمال

لاشك أن الله اختص الإنسان بمقام رفيع بين كل مخلوقاته التى طوع إرادتها كلها من أجله حتى يكون خليفة حقيقياً فى الأرض ، لكن الله أيضاً ميّز بعض تلك الكائنات وكرمها فى كتبه السماوية ، لتبقى متـأرجحة بين القداسة الإلهية والآلية الدنيوية ، وهو مايجعلنا نذهب إلى أن الحمار هو أيقونة البشرية التى رسخت فى ضمير حضارات متتابعة ، حيث يبدأ الإفصاح المدون عنه منذ فجر التاريخ عبر شكاوى الفلاح الفصيح التى وردت فى الجزء السابع عشر الخاص بالأدب المصرى القديم من موسوعة العالم سليم حسن (مصر القديمة) ، إذ جرت وقائع تلك القصة فى عهد الملك " خيتى " أحد ملوك أهناس المدينة فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد ، حيث أحد ساكنى وادى النطرون الذى كان يسافر بين الحين والآخر إلى مصر ليبيع محصول أرضه محملاً على حميره التى اغتصبها ذات مرة أحد الموظفين ويدعى " نخت " ، وهو وماجعل الفلاح يشكو السارق إلى رئيسه " رنزى " الذى جمع مجلس الأشراف ، لكنه لم يفصل فى هذه القضية ، الأمر الذى دفع الفلاح إلى صياغة شكواه بأسلوب بليغ بهر " رنزى " ؛ فعرضه على الملك الذى أمر الفلاح بدوره أن يكرر شكواه من فرط عذوبتها التصويرية ، أى أن الدافع لهذه الدرة الأدبية التاسوعية كان الحمار .. وفى الحضارة البابلية ورد فى الأسطورة ذكر إلهتين هما " غالو " و " أماشتو " ، والأخيرة هى إبنة السماء " أنو " ذات المنظر الباعث على الرهبة برأس أسد وجسم حمار .. ولعل قصة " الحمار الذهبى " للوكيوس أبو ليوس (125م _ 170م) هى أول نص روائى فى التاريخ لهذا المبدع الأمازيغى الأصل الذى كان يعتز بأصوله الأفريقية .. أما الرومان فقد قدّروا الحمار أيما تقدير ، وكانوا فى كثير من الأحيان يقدمونه قرباناً للآلهة ، لذا فقد ارتبط بإله الزراعة الرومانى " ساتورن " الذى اتصف بقدرته المذهلة كشمس ثانية ، بينما ارتبط بإله الخمرة ديونيسوس عند الإغريق .. وفى الحضارة الآشورية بدت ربة الموت راكعة فوق حمار يبحر عبر نهر الجحيم كضحية قربانية .. وعلى المستوى العقائدى فقد تجلى كيان الحمار فى الأديان السماوية كاليهودية والمسيحية

والإسلام ، حيث ورد ذكره فيها أكثر من مرة ، فهاهى قصة " عزيز " التى وردت فى سورة البقرة عن ذلك اليهودى الصالح الحافظ للتوراه ، والذى أماته الله مائة عام ، ثم بعثه ليجد طعامه مازال على حاله لم يتسنه ، بينما حماره قد نفق وتحول إلى عظام كساها الله لحماً مرة أخرى أمام عينيه بعد قيامه من رقاده ، لتتحول هذه القصة إلى معجزة ربانية ظلت نبراساً للأجيال حتى الآن .. وفى المسيحية يبقى الحمار هو أحد القناديل المصاحبة لرحلة العائلة المقدسة التى ضمت السيد المسيح والسيدة مريم العذراء ويوسف النجار ، وهو البناء الإبداعى الذى يزين كل كنائس العالم ، بما أكسب الحمار قداسة استثنائية عند عموم المسيحيين والمسلمين معاً .. وعلى المستوى العلمى النفسى فى إطار تفسير الأحلام يأتى الحمار عند العالم الشهير " يونج " رمزاً للموت إذا اقترن بالطقس الإحتفالى ، فى حين أن الإكتشافات والأبحاث الجيولوجية تقول أن عمر تواجد الحمار يقترب من إثنتى عشر ألف سنة ، حيث يعتبر من فصيلة الخيول التى ظهرت لأول مرة فى منطقة الصومال ، لذا يعد الحمار الصومالى هو الأشهر بين كل سلالاته التى تتكاثر أغلبها طوال العام ، ويأتى المولود منها بعد أحد عشر شهراً ، قبل يصل الحمار لمرحلة البلوغ فى خلال أربعة أعوام .. ومن الحمير ماهو مستأنس ، ومنها ماهو وحشى ، وتتنوع السلالات بين الأهلى والأثيوبى والأمريكى والبواتو والمينوتور .. وعلى المستوى الطبى يعد جلد الحمار مصدراً لتصنيع بعض العقاقير المنشطة للجنس دون مؤثرات جانبية ، علاوة على كثير من الجمعيات الخيرية المعنية بالحمار على المحاور النفسية والجسدية .. أما على الصعيد الإبداعى فقد احتل الحمار مساحة كبيرة ، متجاوزاً الكثير من الحيوانات ، مثل الأدب الذى ظهر فيه داخل حقل الشعر كما بدا فى أبيات أحمد شوقى التى يقول فيها

سقط الحمار من السفينة فى الدجى فبكى الرفاق لفقده وترحموا

حتى إذا طلع النهار به نحو السفينة موجة تتقدم

قالت خذوه كما أتانى سالماً لم أبتلعه لأنه لايهضم

وعلى مستوى الرواية تأتى رائعة الإسبانى خوان رامون خيمنيز " بلاتيرو وأنا " ، وعلى الصعيد العربى تتصدر جوهرة توفيق الحكيم " حمار الحكيم " نفائس الحكى الحديث ، حيث يروى فيها صداقته مع الحمار ، وكيف أنه أحياناً يكون أفضل من الإنسان فى صحبته ومودته وسهولة التعامل معه ..

أما على المستوى الفنى فقد ظهر الحمار غير مرة فى السنيما العالمية والمصرية ، فلا نستطيع أن نغض الطرف عن رائعة شادية (شى ياحمارى) التى كتبها مأمون الشناوى ولحنها محمود الشريف فى فيلم " أمال " الذى أنتجته " آسيا " للسنيما عام 1952م وكتب قصته هنرى بركات ، وحواره يوسف عيسى ، وقام بتصويره مصطفى حسن ، فى حين كان الحمار ولم يزل هو المادة السخية على الفنانين التشكيليين فى حركة الفن المصرى ، وكان أبرز من تناولوه فى أعمالهم هم المصور الرائد محمود سعيد فى عمله الشهير " نساء المدينة " ، إضافة إلى مصورين آخرين تأثروا بوجود الحمار معهم فى محيطهم الريفى ، مثل بدوى سعفان ومصطفى بط ، ومن الحفارين إدريس فرج الله الذى شاعت شهرتة فى حركة الحفر المصرى عبر الصياغة الإبداعية لهذا الحيوان الطيب ، ومن أشهر المثالين المصريين الذين جسّدوا الحمار نحتياً آدم حنين ومحمد رزق وآخرون .. والقائمة طويلة أيضاً فى الحركة التشكيلية العالمية والعربية ، بما يؤكد ماذهبنا إليه أن الحمار هو بحق أيقونة البشرية ، حيث أعتقد كذلك أنه يعتبر مثيراً جمالياً شديد العذوبة على المستويين الشكلى والضمنى ، بعينيه الواسعتين اللتين تحملان بداخلهما طيبة ورقة بالغة ، وأذنيه المدلاتين اللتين توحيان بالإصغاء النبيل للإنسان والحيوان معاً ، وسيقانه الأربع شديدة التناسق ، وبطنه الآخذة فى التكور النسبى المنتظم ، ليظل ذيله المتهدل إلى أسفل هو إحدى علامات حسنه ، وأبرز قدراته على الإفصاح عن فرحه وحزنه .. وربما لكل ماسبق عرضه نعتبر الحمار واحداً من ألمع المخلوقات الجاذبة للمبدعين عند تناول هذا الكائن الصبور الحمول الحنون المعطاء الملهم الحافظ لأسرار الإنسان كأيقونة خالدة للبشرية .

محمد كمال